سجون بغداد

زمن العباسيين

للأستاذ صلاح الدين المنجد

— ٢ —

(ز) العيارون ، اللصوص ، المجرمون

وكان العيارون واللصوص وقطاع الطريق يودعون السجن[١] وقد سجن المأمون نفراً منهم كبيراً . وقتل آخرين[٢] ، وذكر ابن المعتز أن إسحق بن خلف ، وكان أحد الشطار الذين يحملون السكاكين قتل غلاماً فحبس بذلك ؛ فما فارق الحبس حتى مات[٣] .

(١) آدم متز : ج ٢ ص ١١٥
(٢) تاريخ بغداد لابن طيفور ص ١٧٨ .
(٣) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ١٢٨ .

وذكر ابن الجوزي أن المعتمد حبس ثلاثة من الجند لأنهم سرقوا[١] . وأنه وجدت في خلافة المطيع امرأة قد سرقت صبياً ، فشوته في تنور وهو حي ، وأكلت بعضه ، وأقرت بذلك ، وذكرت أن شدة الجوع حملتها على ذلك . فحبست مدة ، ثم ضربت عنقها[٢] .

وكان الأطباء الذين يغلطون فيودون بحيلة الناس يحبسون . فقد حبس الطبيب النصراني خصيب لأنه سقى محمد بن أبي العباس السفاح شربة دواء فمرض منها ومات وبقي في حبسه حتى مات[٣] .

(ط) الشعر ، المضحك ، الغناء

وقد يسجن الإنسان لأسباب حقيرة لا شأن لها . فتحدثنا كتب الأدب أن أبا العتاهية سجن مرة لأنه قال :

(١) المنتظم لابن الجوزي ج ٥ ص ١٢٤
(٢) » » » ج ٦ ص ٢١٧
(٣) عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة ص ١٤٨

بالأرج المحيي والشذى المعطار .

وهل الدنيا إلا صحراء لاهبة واحتها المخضلة هبات الفن السامي ونتاج العبقرية الخلاقة ؟ !

وهل العيش لولا تلكم النفثات العذارى التي يطرف العالم بها أرباب الفن وعباقرة الأدب إلا الشقاء الحرور ، والعناء الفادح والوصب المعض ؟ !

كان الحسن البصري يقول ما مؤداه :

الدنيا كلها ظلمة إلا مجالس الأدباء ومساجلات العلماء ومطارحات الشعراء .

ألا قدّس الله سرك يا حسن ، يا مجتلى النور في البيان السمح والمنطق المعسول .

« اسمعوا أيها الناس وعوا » على حد تعبير خطيب العرب وحكيمها وحكمها قس بن ساعدة الأيادي .

إنما الأدب عصارة القرائح وفيه تتجلى خلاصة الثقافات ، وإنه لمستودع الحكمة والحكمة يا كرام الناس كرسالات الأنبياء من وحي السماء وما توحيه السماء لا يموت . وهل تعوزكم الأدلة والبينات وبين أيديكم المكتب المنزلة تهتفون بآياتها الساحرة آناء الليل وأطراف النهار ؟

تلك الآيات التي تخشع عند تلاوتها النفوس خشعة الإكبار والإجلال والتقدير لهيمنتها على المشاعر واستحواذها على العقول والألباب حتى لكأنها السحر ، بل إنها لكذلك وإن من البيان لسحراً .

سبحان رب العرش وتعالت كلمتك . ما كان قولك الحق ليحتاج إلى الأيمان البائنة تؤيده لولا أن في الناس أدعياء مارقين كالوليد بن المغيرة ينكرون نعمتك ويكذبون آياتك ويقولون عنها ضلة وزيفاً « إنها أساطير الأولين » فأقسمت — وبالرهبة القسم العظيم « ن ، وبالقلم وما يسطرون » . تثبيتاً لبيانك الخالد وتنويهاً بالقلم وبأربابه رافعي علم حكمتك السامية بين الناس . وحكمتك هي الحق اليقين التي بها يهتدون .

أشهد اللهم أنك أنت الشاعر الأعظم ، وأن أنبياءك المرسلين الأطهار أئمة الشعراء والأدباء أجمعين .

وأشهد أن للفن شباباً غضيراً يتحير في قسماته النورانية ماء الخلود .

(بيروت)

جورج سلستي

ألا إن ظبياً للخليفة صادنى ... ومالى عن ظبى الخليفة من عذر[1]

وسجن مرة ثانية لأن الرشيد أمره أن يتنزل وهو معه فى الرقة ، فأبى[2] وكان معه إبراهيم الموصلى ؛ وكان قد أمره أن يغنى ، وقد مات الهادى فأبى أيضاً ، فحبسه وقال: لايخرجان حتى يغنى هذا ويشعر ذاك[3] .

ويذكر الشابشتى صاحب كتاب الديارات خبراً يدعو إلى العجب والإعجاب فى آن معاً . قال : خرج إسحاق بن إبراهيم من عند المأمون ، حتى إذا صار إلى الدهليز الثانى وقف ، ووقف القواد والناس لوقوفه . ثم قال : أين خليفة على بن صالح ؟ وكان على ذلك الوقت صاحب أمر الدار والمرسوم بالحجبة . فأتى خليفته فضربه مائة مقرعة . ثم قال : الحبس . ثم قال : هاتوا خليفة صاحب البريد ، فأتى به ، فضرب مائة مقرعة . ثم قال : الحبس. ثم دعا بعلى بن صالح ، وبصاحب البريد ، وقال لهما : تقلدان خلافتكما فى دار الخلافة من يضيع الأمور ويهملها ... كنتما بهذا الأدب أحق من هذين ! فقالا : وما كان من أمرهما الذى أنكرته أيها الامير ؟ قال : صاحب بريد ، يقعد فى دار الخلافة فيضحك ويقهقه ، وصاحب الدار جالس لاينكر ... ! »[4] .

وفى جميع هذه الأسباب ذكرت كتب الأدب أخباراً أخرى أخذنا منها ما يقوم به الدليل على ما ذهبنا إليه ، ولم نعمد إلى التطويل .

أنواع السجون

نستدل مما اطلعنا عليه من النصوص أنه كان فى بغداد أنواع متنوعة من السجون . فهناك المطبق وهو حبس مظلم كبير ، كان المنصور قد بناه بين طريق البصرة وطريق باب الكوفة . وباسمه سمى الشارع الذى يقع هذا السجن فيه . وكان متين البناء قوى الأساس . وفى أهم سجون بغداد حتى عهد المتوكل »[5] . وكان فيها سجن آخر عند باب الشام ، إذا ذكروه قالوا : السجن الذى عند باب الشام وكان يهاجم دائما . وكان عليه عثمان بن نهيك ، وقتل فى فتنة الروابدية[1] فلما كان زمن المعتصم أمر أن يبنى حبس فى بستان موسى ، وكان القيم به مسروراً مولى الرشيد . يقول التنوخى « وكان هذا البناء يرى من دجلة إذا ركبها المرء وكان كالبئر العظيمة ، قد حفرت إلى الماء أو قريب منه ، وفيها بناء على هيئة المنارة مجوف من باطنه ، وله من داخله مدرج قد جعل فى مواضع من التدريج مستراحات ، وفى كل مستراح شبيه بالبيت ، يجلس فيه رجل واحد ، كأنه على مقداره ، يكون فيه مكبوباً على وجهه ، وليس يمكنه أن يجلس ولا يمد رجله[2] » .

ثم بنوا سجناً آخر سموه السجن الجديد . وكان موضعه إقطاعاً لعبد الله بن مالك[3] وبقى حتى جاء معز الدولة فهدم سوره سنة ٣٥٠ ، ونقل آجره إلى داره وبنى به[4] ، وفى سنة ٣٥٥ كتب إلى طاهر بن موسى أن يبنى موضع الحبس المعروف بالجديد بارستاناً[5] .

ولا نستطيع وصف مافيها على التفصيل ؛ وإنما نعلم أنها كانت ذات أقسام ، فحبس للزنادقة ، وحبس للعوام ، وحبس للنساء ، و ...

وكان فى المطبق الغرف الواسعات والضيقة . وكان فيه الآبار يسجن فيها . حدث يعقوب بن داود وزير المهدى قال حبسنى المهدى ، وذلك فى المطبق . فدليت بحبل فى بئر مظلمة لاأرى فيها الضوء[6] قد بنيت عليها قبة ، فكنت فيها خمس عشرة سنة[7] .

وربما سجنوا فى أماكن ومحال أخرى . فقد سجن سليمان ابن وهب فى كنيف قال : فأخذنى اسحق (بن ابراهيم ، صاحب الشرطة) وحبسنى فى كنيف ، وأغلق على خمسة أبواب . فكنت لا أعرف الليل من النهار[8] ، وسجن المحسن بن أبى الحسن بن الفرات فى كنيف داخل الحجرة ، ودلوا فى بئره رأسه

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٦

(٢)و(٣) الأغانى : ص ٤ ، ٥ ج ٥

(٤) الديارات للشابشتى (مخطوط) : دير مديان .

(٥) بغداد فى عهد الخلافة العباسية : لسترانج ص ٣٤ .

(١) ابن خلدون : ج ٣ ص ١٨٦

(٢) الفرج بعد الشدة للتنوخى ج ١ ص ١١٩

(٣) تاريخ بغداد للخطيب ص ٨٧

(٤) المنتظم لابن الجوزى ج ٧ ص ٢

(٥) المصدر السابق ج ٨ ص ٣٣

(٦) الفخرى ص ٢٢١

(٧) الفرج بعد الشدة ج ١ ص ١٤١

(٨) المصدر السابق ج ٥ ص ٣٤

بعد أن قيد وألبس جبة صوف غمست بالنفط[1] . وربما سجنوا في الحجر الضيقة المظلمة ، حدث أبو الحسن بن أبي الطاهر قال : قبض محمد بن القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب في وزارته للقاهر بالله ، على أبي وعلي معاً فحبسنا في حجرة من دار ضيقة ، وأجلسنا على التراب[2] .

وكان الحبس الذي سجن فيه المهدي إبراهيم الموصلي مكاناً شبيهاً بالقبر مملوءاً بالأفاعي والبق[3] . ولما سير المنصور جماعة من أبناء علي إلى الكوفة حبسوا في سرداب تحت الأرض ، لا يفرقون فيه بين ضياء النهار أو سواد الليل[4] .

وربما سجنوا في دار منفردة ، كما فعلوا بأبي العتاهية لما طلب إليه الرشيد أن يتغزل فأبى ومنعوا دخول من يريد إليه .

ويذكر ابن الجوزي أن القاهر بنى المطامير ليحبس الجند فيها[5]

* * *

وأناس آخرون كانوا لا يسجنون في هذه المحال . فقد كانوا يحبسون من يخافون عليه عند الوزراء . كما سجن عبد الملك بن صالح عند الفضل بن الربيع لما غضب الرشيد عليه[6]، وكما سجن ابراهيم بن المهدي بعد القبض عليه وقبل العفو عنه ، عند أحمد ابن أبي خالد[7] . وربما أودعوا عند من يثق الخليفة به ، كما فعل الرشيد عند ما سجن موسى بن جعفر بدار السندي بن شاهك[8] .

وكانوا يتخذون قصور الخلفاء سجوناً في بعض الأحايين . فقد حبس المستعين بن المعتصم ، المعتز والمؤيد ابني المتوكل في حجرة من حجرات الجوسق الكبير[9] . ويقول لسترانج إن الخلفاء « اتخذوا دار الشجرة التي شيدها المقتدر ، حبساً رسمياً ، وضعوا فيه أقرب أقربائهم احتياطاً من أعمالهم . وجعلوا في خدمتهم عدداً من الغلمان والخدم ، وجهزوه تجهيزاً تاماً بوسائل الرفاهية والنعيم ، ومنعوهم من تخطي أسواره[1] .

ويذكر ابن الجوزي أن القاهر حبس في دار السلطان مدة إحدى عشرة سنة ، من (٣٢٢—٣٣٣) ، ثم أخرج إلى دار ابن طاهر ، فكان يحبس تارة ويخلى تارة[2] .

ومنذ القرن الرابع أخذوا يسجنون عند القهرمانات . فقد سجن ابن الفرات عند زيدان القهرمانة[3] ، وسلم إليها أيضاً الامير الحسين بن حمدان ، والوزير علي بن عيسى[4] .

في السجن

لا نعلم الكثير من أحوال السجناء في بدء العصر العباسي ؛ على أننا نورد لك ما كتبه أبو يوسف للرشيد عن المساجين لتصور لك ما كانوا عليه . فقد طلب أبو يوسف أن يؤمر بالتقدير لهم ما يقوتهم في طعامهم وأدمهم ؛ وأن يصير ذلك دراهم تجرى عليهم ، وتدفع في كل شهر إليهم « فإنك إن أجريت عليهم الخبز ذهب به ولاة السجن والقوام والجلاوزة . وول ذلك رجلا من أهل الخير والصلاح يثبت أسماء من في السجن ممن تجرى عليهم الصدقة ، وتكون الأسماء عنده ، ويدفع ذلك إليهم شهراً بشهر . يقعد ويدعو باسم رجل رجل ، ويكون الإجراء عشرة دراهم في الشهر لكل واحد ، وليس كل من في السجن يحتاج أن يجرى عليه » . ثم طلب أن تكون كسوتهم في الشتاء قميصاً وكساء ، وفي الصيف قميصاً وإزاراً ، وأن يجرى على النساء مثل ذلك ، وهذا يدلنا على سجن النساء ، وكسوتهن في الشتاء قميص ومقنعة وكساء ، وفي الصيف قميص وإزار ومقنعة .

(يتبع)

صلوح الدين المنجد

(١) تاريخ الوزراء للصابي : ص ٢٤٣
(٢) الفرج بعد الشدة : ج ١ ص ٥٢
(٣) الأغاني : ج ٥ ص ٥
(٤) مروج الذهب : ج ٢ ص ٢٠٠
(٥) المنتظم لابن الجوزي ج ٦ ص ٢٦٤
(٦) الطبري حوادث سنة ١٨٧ ج ١١
(٧) تاريخ بغداد لابن طيفور : ص ١٨٥
(٨) الفخري لابن طباطبا : ٢٣٣
(٩) الطبري حوادث سنة ٢٤٨

(١) بغداد في عهد الخلافة العباسية : لسترانج : ص ٢٢٠
(٢) المنتظم ج ٦ ص ٢٦٥
(٣) كتاب الوزراء للصابي ص ١٠٥
(٤) آدم متز ج ١ ص ٢٤٣ نقلا عن العيون والحدائق (مخطوط) ص ١٨٥ . برلين رقم ١٤٩١